المحاضرة رقم: 02

مفهوم نظرية الأدب

من الباحثين من يرى بأنّ نظرية الأدب تقحم نفسها بين القارئ وبين العمل، لكن الحقيقة أنّنا بدون نظرية معيّنة، مهما كانت ضمنية أو تأملية، فالعداء الموجود هو في مقابل النظرية، في حين أنّنا من غير النّظرية لن نعرف ما هو العمل الأدبي، و لا كيف نقرأه.

إذا كان هناك شيء اسمه نظرية أدب فحتما هناك شيء يسمّى أدب، فما هو الأدب؟

أعطي للأدب تعريفات كثيرة تأسّست على وجهات نظر مختلفة ومتباينة، سنحاول ذكر أهمّها في هذه المحاضرة:

الأدب هو الكتابة التّخييلية، أي تلك الكتابة غير الصّادقة حرفيا، أي تلك الكتابة المنزاحة عن الكلام العادي، فما هي مميّزات هذه الكتابة؟ وهل يقتصر الأدب على اللّفظ أم المعنى، أم الإطار الجمالي أم الأسلوب أم الفكرة؟...

إنّ الأدب يرتبط بكلّ هذه الجوانب متلاحمة، وإن غاب جزء منها لا يمكن أن نطلق على الباقي منها اسم "أدب".

لقد سادت النّظرة القائلة بأنّ الأدب مرآة منذ عصر أفلاطون، فهل هو مرآة للأشياء أم لعقل الأديب أم لذات الأديب، أم هو مرآة للبيئة الاجتماعية والحضارية والثقافية.

ثم كيف هو حال هذه المرآة؟ هل هي مرآة مسطّحة أم مرآة محدّبة أو مرآة مقعّرة، فالرّؤية تختلف في جميع الحالات.

كما أنّنا نجد عبارة مشابهة لعبارة "الأدب مرآة" وهي عبارة " الأدب صورة" ، فهل هو صورة لفعل شخصية؟ أو هو صورة لحياة الأديب وانفعالاته؟ أو هو صورة من صور التّعبير عن الخيال؟ أو صورة للعلاقات الاجتماعية.

وهناك من يربط الأدب ببعض الظواهر، فيصبح جزءا من الفن بشكل عام، أو يصبح جزءا من المعارف والعلوم الإنسانية، أو جزءا من الإيديولوجيا، أو جزءا من النّظام الاجتماعي، فيعتبره البعض ظاهرة اجتماعية أو حضارية أو ثقافية.

أ.د سعدية بن ستيتي

وإنّنا نجد أيضا من يربط الأدب بطبيعته اللّغوية، أي الأداة التي صنع منها، ومن هذه التّعريفات نذكر ما يلي:

الأدب فنّ لغوي، أو لغة خيال، أو كيان لغوي، جسد لغوي، أو رصف من الجمل، كما أنّ هناك من يربطه بالفن مباشرة فيعتبره نظام من الرّموز والدّلالات التي تولد في النّص ولا علاقة لها بخارجه.

و الأدب تعبير بالكلمة عن موقف ما من العالم، أو أنّه صياغة لغوية لتجربة إنسانية عميقة، أو أنّه استخدام خاصّ للّغة لتحقيق هدف ما.

ربّما كان الأدب قابلا للتّعريف ليس وفقا لكونه خياليا أو تخييليا، بل لأنّه يستخدم اللّغة بطرق خاصّة، ووفقا لهذه النّظرية يكون الأدب نوعا من الكتابة، والتي عبّر عنها "رومان جاكوبسن" باعتباره الأدب " عنفا منظّما يمارس على الحديث العادي، الأدب يحوّل ويكثّف اللّغة العادية، ويحيد بانتظام عن حديث كلّ يوم."

نفهم من هذا القول أنّ كلام الأديب يختلف عن الكلام العادي، فالكلام الأدبي له نسيجه ورنينه الخاص المنبعث من كلماته، فهناك عدم تناسب بين الدّلالات والمدلولات، فاللّغة تلفت الانتباه إلى نفسها.

لقد ركّز الشكلانيون الرّوس كثيرا على هذا التّعريف؛ ذلك أنّهم كانوا يرفضون المذاهب الرّمزية شبه الصّوفية التي أثّرت على النّقد الأدبي، وعن طريق الرّوح العلمية حوّلوا الانتباه إلى الواقع المادي للّنص الأدبي ذاته، فعلى النّقد أن يفصل الفن عن التّصوف ويهتم بالكيفية التي تعمل بها النّصوص الأدبية بالفعل.

وبرأيهم هذا نستشف أنّ الأدب ليس دينا، ليس إيديولوجيا، ليس سوسيولوجيا، بل هو تنظيم "خاصّ للّغة وله قوانينه، وبنياته، وأدواته النّوعية التي يجب أن تدرس في ذاتها بدل أن تختزل إلى شيء آخر، والأدب ليس مركبة للأفكار، ولا هو انعكاس للواقع الاجتماعي ولا تجسيد لحقيقة مفارقة" إنّه حقيقة مادية؛ فهو مكوّن من كلمات، وليس من موضوعات أو مشاعر، ومن الخطأ اعتبار أنّه تعبير عن عقل مؤلّف ما.

نلاحظ أنّ هذه المفاهيم المختلفة والمتشعبة تربط الأدب بالوظيفة على أساس أنّنا نعرف الشّيء إذا عرفنا مصدره و منشأه، ونركز على معرفة وظيفته كشيء أساسي في تحديد ماهيته.

أ.د سعدية بن ستيتي

و إن بحثنا عن وظيفة الأدب، فهل الأدب إفساد للأخلاق أم تطهير للعواطف، أو أنّه إثارة للعواطف من خلال تمكين القرّاء من التّعبير عن انفعالاتهم، وهل الأدب وجد من أجل التّسلية أم الإحساس بالجمال، أو هروب النّفس من الواقع أو يحدث العكس، أي تلتصق النفس بالواقع لتتخطّاه فتبني واقعا أفضل.

كلّ هذه الأسئلة توحي بأنّ دراستنا للأدب ستتركّز على ثلاثة جوانب مهمّة وهي: نشأة الأدب (مصدره)، طبيعة الأدب (ماهيته) ووظيفة الأدب (مهمّته).

والبحث في هذه الجوانب كلّه يستدعي الاستناد على نظرية في المعرفة تتبني على فلسفة محدّدة حتّى يوفّر الباحث لأفكاره وآرائه درجة القوّة والاتّساق الكافيين. وهذا هو ميدان نظرية الأدب المختلف

تماما عن النّقد الأدبي، ومنه نصل إلى أن نظرية الأدب هي:"مجموعة من الآراء والأفكار القويّة والمتّسقة والتي تهتمّ بالبحث في نشأة الأدب وطبيعته ووظيفته، وهي تدرس الظّاهرة الأدبية بعامّة من هذه الزّوايا في سبيل استنباط وتأصيل مفاهيم عامّة تبيّن حقيقة الأدب وآثاره."

وعلى أساس هذا التّحديد فإنّه ليست كلّ الآراء في الأدب ترقى إلى مستوى النّظرية، لأنّها لا تتأسّس على فلسفة محدّدة.

والاتّساق والعمق الذي تتّصف به النّظرية الأدبية لا يعني أنّ النّظرية لا تخلو من الثّغرات التي قد تؤدّي إلى غيابها في مراحل معيّنة، فكلّ نشاط ذهني وثقافي يرتبط بمرحلة اجتماعية وحضارية معيّنة، والأمر ذاته ينطبق على نظرية الأدب.

ونظرية الأدب تهتم بمقوّمات الأدب كحقيقة عامّة في أيّ زمان ومكان وفي أيّ لغة كتب بها، و لا يتمّ الكشف عن نشأة الأدب إلاّ بالبحث في العلاقة بين الأديب والعمل الأدبي.

والبحث عن طبيعة الأدب يعني بيان جوهر الأعمال الأدبية أو خصائصها ومميّزاتها العامّة.

والبحث في وظيفة الأدب يعني بيان العلاقة بين الأدب وجمهور القرّاء أي بيان أثر الأدب في المتلقين ولولا الأديب والقارئ لما وجد العمل الأدبي.

كما أنّه لا يمكن أن توجد نظرية أدبية إلاّ بعد وجود أعمال أدبية.

أ.د سعدية بن ستيتي

إنّ مهام نظرية الأدب تتداخل مع مهام النّقد الأدبي تاريخ الأدب، فالنّاقد لابدّ له أن يتسلّح بمفهوم ما للأدب باستناده إلى نظرية في الأدب قبل تعامله مع النّصوص الأدبية، كما أنّ المؤرخ لابدّ له من مفاهيم عامّة للتّمييز بين الأعمال الأدبية وغيرها، فكما لا وجود للنّاقد قبل وجود الشّاعر أو القاص، فلا وجود لمنظّر الأدب أو مؤرخ الأدب قبل وجود الأدب.

وعلى الرّغم من حقيقة تعاملهم مع الأعمال الأدبية إلاّ أنّ لكلّ واحد منهم طريقته في التّعامل مع النّصوص، فالمؤرّخ يهدف إلى تبيين الظّروف والملابسات التي أحاطت بالعمل الأدبي وبصاحبه، والنّاقد يحاول تبيان الجودة والرّداءة وأسبابهما في العمل الأدبي، ليصدر حكما أو تقويما أو ليبيّن انفعاله، لكنّ المنظّر الأدبي يهتمّ بجملة من النّصوص ليستنبط مبادئ عامّة وشاملة تبيّن حقيقة الأدب كظاهرة عامّة.

أ.د سعدية بن ستيتي